الخاتمة

الخـاتمـــة

إن القرآن الكريم - كما سَمَّاه ربنا - عز وجل - نور أرسله إلينا لهدايتنا ، وقبيح بمن أُعْطِيَ شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشى فى الظلمة ، وجنون بمن أعطاه الطبيب بلسم شفائه أن يُلْقِيَه ويَلْتَمِسَ سُمَّ رداه ، وأعمى عين وقلب ذلك الذى يرى النار ، ويُحَذِّرُها ثم يُلْقِى بنفسه مُعَانِدًا فى آتونها .

ذلكم مثل القرآن ومثل المشركين . ولكأنى بالقرآن الكريم أسلوبِه فى خطاب المشركين كالطبيب الحاذق الذى أتاه الله سر الداء والدواء : تَعَهَّدَ النفوس المريضة بالدواء الشافى، وعالج النفوس السقيمة بالترياق الناجع ، والنفوسَ المُسْتَكْبِرَةَ المُنْكِرَةَ بالعقاب الفاجع.

كان القرآن أسلوبُه مُعَاتِبًا حين يكون العتاب مُجْدِيًا ، مُسْتَنْكِرًا حينما يكون الاستنكار قارعا ، مُلْفِتًا النظر والعقل إلى التفكير حينما يكون البرهان والدليل مُقْنِعًا ، صارخا هادرا كموج البحر الثائر حينما يكون الحَدَثُ مُفْجِعًا ، عارضا المشاهد الأخروية إذا كان عرضها ، مُثِيرًا مُؤَثِّرًا فى الحواس والمشاعر والخواطر إذ تَكَوُّن السموات والأرض مَعْرِضًا ، مُصَوِّرًا مُعْجِزًا بالكلمة لمشاهد القيامة المُنْبِئَةِ عن مصائر الناس حينما يكون عرضها مُفْزِعًا مُفْجِعًا مُوْجِعًا ، أو مُرَغِّبًا مُطَمْئِنًا وبالسرور مُفْعَمًا ، مُهَدِّدًا إذا كان التَّهْدِيدُ لازما واجبا ، مُتَوَعِّدًا إذا كان الوعيد للمتجبِّرين المشركين مُرْعِباً ، وَاعِدًا إذا كان الوعد للقلوب المؤمنة مُسْعِدًا مُرَغِّباً ، مُسْتَدْرِجًا للقوم إلى الحُجَّةِ حينما يكون البرهان والحجة مُلْزِمًا ، دَاعِيًا - إذا لم يُغْنِ التأثير فى القلوب - إلى التَّدَبُّرِ والتفكير إذا كان العقل للتفكير رَاغِبًا مُسْتَوْعِبًا . وَاعِظًا بمصائر الغابرين أولئك المتكبرين المستكبرين إذا كان للقصص عارضاً .

ومهما حاول الواصفون أن يصفوا كُنْهَ القرآن ، فلا أظن أنهم يستطيعون أن يُعَبِّرُوا عن كثير مما تجيش به صدورهم . وما يخالط شغاف قلوبهم ؛ إذ المعنى المحسوس والتأثير المفعول والبلاغة المُتَذَوَّقَةُ أكبر بكثير جدا من اللفظ المُعَبَّرِ به عن المعنى ، والذي لا يُوَفِّى بعضا من سمات هذا الأسلوب ؛ لا لقصور فى اللغة ، ولا لقصور فى أدوات الباحثين . ولكن؛ لأن الأسلوب يَتَأَبَّى على الواصفين ؛ إذ الفرق بين الواصف والموصوف هو ذات الفرق بين الخالق والمخلوق .

حسب الباحث ، إذن ، أنَّ حاول و قرب ووصف بهذه الألفاظ التى لا تكاد تخرج عن نطاق الذوق الرفيع حتى تعود إليه،بالرغم من تلك المحاولة المُسْتَمِيْتَةِ من الباحث أن يكـــون موضوعيا . لكن أين الباحث من القرآن ؟!

وليس الباحث أول من أعجزه وصف الأسلوب القرآني ، بل سبقه كثـــيرون عربـــا كانوا أم مستشرقين ! هذا - مثلاً - استانلى لين بول يقول فى كتابه (محمد رسول الله صلـــى الله عليه وسلم) : "إن أسلوب القرآن فى كل سورة من سوره لأسلوب أَبِيٍّ يَفِيـــضُ عاطفـــة وحياة .. إن الألفاظ ألفاظ رجل مُخْلِصٍ للدعوة ، وإنها لاتزال حتى الآن تحمل طابع الحماسة والقوة ، وفى ثناياها تلك الجَذْوَةُ التى أُلْقِيَتْ بها. إنها ألفاظ قُدَّتْ من قلب إنسان يستحيل معـها أن يكون مُنَافِقًا ، وهذا القلب قلب رجل كان له أخطر الشأن فى تاريخ الإنسانية"(١)

ومع أننى لا أحس ارتياحا ولا قبولا لعبارة الرجل: "إنها ألفاظ قدت من قلب إنســـان يستحيل معها أن يكون منافقا" ، فلعلها تصدر عن مُسْتَشْرِقٍ مُقْتَنِعٍ بصورة ما أن محمـــدا - صلى الله عليه وسلم - هو مُؤَلِّفُ القرآن . وَلْنَلْحَظِ المراوغة فى عبارة الرجل "قُدَّتْ من قلب إنسان" وقُدَّتْ تعنى اقْتُطِعَتْ من أصلها ، وهو قلب رسول الله - صلى الله عليـــه وســـلم - وربما أخطأ فى التعبير أولم يكن من الدقة فى عبارته- غير أن الرجل يشير - بوضـــوح - إلى تلك السمة التى لاتَعْزُبُ عن قلب أي قارىء للقرآن أو سامع له،أيا كانت درجته العلميـــة والثقافية ، يستوي فى هذا الأُمِّيُّ والعالم . إنها الحيوية والتأثير، والاستمالة والإقناع،أو قُـــلِ الرَّهْبَةُ والرَّغْبَةُ.

و ذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم الْتَفَتَ إليه الكثيرون من الباحثين قديمـــا كالخطابي ، و حديثا كالأستاذ محمد فريد وجدي و الدكتور زكى مبارك ، وعَزَوْا ذلك الوجه من إعجاز القرآن إلي الإعجاز الروحي للقرآن ، وهم يعنون به تأثيره فى النفوس و صنيعـه فى القلوب .

وحري بالباحث أن يَدْلِفَ إلى نتائج بحثه التى تتمحور جميعها-إضافة إلى ذلك الوجه المشار إليه -حول أسلوب القرآن ، القائم على الدعوة إلى الإيمان بالله الأحد عـــن طريـــق

---

(١)نقلا عن دلائل النبوة ، للدكتور / عبد الحليم محمود ، صـــ ١٤٢ .

أسلوب الجدال العقلي اللطيف ، و لفت النظر إلى الآيات الكونية و البراهين العقلية و الدعوة إلى العظة و العبرة بأساليب مختلفة .

ولعل أهم ثمار جناها الباحث من جَنَّةِ القرآن الكريم -على كثرتها و تَفَرُّقِهَا فى ثنايا البحث-ما يلى :

أولا : إن القرآن كله توحيد ، والوصول إلى الوحدانية فيه هى غاية علم التوحيد أو علم الكلام،و منتهى القصد ،وهذا المعنى النقى الخالص للتوحيد " أى الإيمان بالله و حده لا شريك له " هو ما كان يفهمه الصحابة و الرعيل الأول من الأمة . أما النظر إلى التوحيد بالمعنى الاصطلاحي من أنه " العلم الذى يُبْحَثُ فيه عن الله و صفاته ، و الرسل وما يجب أن يكونوا عليه، والدار الآخرة و أحوالها، وأخيرا عما ألحق بهذه المسألة كمسألة الإمامة" (١) فقد كان بعد ما تشعبت الأمة إلى فِرَقٍ و بعد أن تأثر المسلمون بالفلسفة و المنطق اليونانى .

ثانيا : إن القرآن الكريم قد تحدث عن عقيدة الشرك بأشكالها و صورها فى الكثير من آياته ، و كانت غايته هى إثبات و حدانية الله تعالى ، و بناء المجتمع المسلم على مقتضى هذة الحقيقة ، فناقش المشركين فى معتقداتهم و مفاهيمهم و اتجاهاتهم نقاشا موضوعيا ، فنقدها و نقضها ، ورَدَّ كُلَّ مَزْعَمٍ ، ودَحَضَ كُلَّ فِرْيَةٍ ، وأَبَانَ عن الحق الأَبْلَجِ. سالكا فى ذلك أسلوبا فريدا ، ونظما بديعا ، يُعَبِّرُ عن حقائقَ بطريقٍ يتزاوج فيه التأثير والإمتاع مع اليقين والإقناع .

ثالثا : اتَّضَحَ من خلال هذا البحث المُمْتِعِ مع كتاب الله -عز وجل- أن أغلب الآيات التى تناولت هدم عقيدة المشركين كانت آياتٍ مَكِّيَّةً ؛ ذلك أن مواجهة تَصَوُّرِهِمِ الباطلِ عن الله تعالى ، و ادعائهم أن مع الله آلهة أخرى قد كانت هى أولى المواجهات مع المشركين و أشدها و أقواها ، بل كانت المواجهة العقائدية مع المشركين السمة الأساسية للقرآن فى المرحلة المكية ، إذ العقيدة هى لُبُّ الدِّيْنِ و أساسُه المَتِيْنُ .

رابعا : لقد خاطب القرآن المشركين بكل أسلوب : مُقَرِّرًا مُبَيِّنًا بنظم يحوى دلالات

---

(١)المقاصد للتفتازانى ، نقلا عن دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد العاشر ، صـ١٠٧ .

بلاغية تحرك العقل و الوجدان و العاطفة و الشعور و الفكر مُسْتَفْهِمًا ، أو ناهيا ، أو امـــرا ، أو نافيا ، أو ضاربا المثل ، أو مُنْذِرًا أو مُتَحَدِّيًا ، أو مُحَذِّرًا ، أو مُفَسِّـــرًا ، أو مُبَرْهِنًـــا أو مُلْزِمًا الحجة لهم ، أو مُتَوَعِّدًا، أو مُرَغِّبًا ، أو مُرَهِّبًا ، أو مُصَوِّرًا لهم مشاهدهم يوم القيامة- إن ظلوا على شركهم بل إن بعض الايات لتحتوى على أساليبَ متنوِّعَةٍ مما يُمْكِنُ أن أسميه "التنوع الأسلوبي " أو " الثراء الأسلوبي " و لعله خاصية مُمَيِّزَةٌ يَتَّسِمُ بها أسلوب القرآن .

خامسا : استخدم القرآن الكريم أسلوب التقرير ، لِيُعَبِّرَ عن واقع قائم بالفعل ، و هـــو إشراكهم بالله الهة أخرى ، و غالبا ما كان يسبق تقريرَ شركهم سَوْقُ الأدلـــة العقليـــة التـــى تخاطب العقل ، و تنفذ إلى الحس و الشعور ، فَارِقَةً بين صاحب الآيات الباهرة الدالة علـــى قدرته ووحدانيته ، و بين آلهة مُدَّعَاةٍ لاتملك من أمر نفسها شيئا .

و قد كان هذا نهجا قرآنيا استهدف غايات بلاغية منها ازدراء المشركين و تحقـيرهم و السخرية منهم ، و التشهير بهم ، والتشنيع عليهم بحكاية جنايتهم ، والحال ناطقة بـــالتوحيد مما يضعهم تحت تأثير نفسى شديد ، يقود أصحاب الفِطَرِ السليمة منهم إلى الإيمان بـــالواحد الأحد ، أو يقود أصحاب الكِبْرِ منهم إلى المُكَابَرَةِ والعِنَادِ ، وإذ يتدبر الموحِّد تلك الآيات لَابُدَّ أن يستحوذ على قلبه الإحساس بالرغبة و الرهبة : الرغبةِ فى الاستمرار علـــى التوحيـــد ، و الرهبةِ من أن تَزِلَّ قدماه عن أفق التوحيد لَحْظَةً .

كما أن التقرير القرآني لشركهم كان يُعَقِّبُ عليه السياق فى كل آية بما يقتضيه السياق، و يوجبه المقام بطرق بلاغية عديدة ، منها نفى قدرة الشركاء علـــى أى شـــىء أو إثبـــات الوحدانية .

سادسا : إن أكثر الأساليب التى استخدمها القرآن الكريم فى التعبـــير عـــن عقيـــدة الشرك، هدما ، وعقيدة التوحيد بناء-هو أسلوب الاستفهام ؛ فقد كان هـــذا الأســـلوب الطريقة المُخْتَارَةَ كثيرا ، و لاختيار هذه الطريقة دون سواها مقـــاصد فنيـــة يقصـــد إليـــها الأسلوب القرآني ، وأهم مقصد فنى ابتغاه النظم القرآنى للاستفهام هو الإثارة : إثارة العقـول لِتُفَكِّرَ ، وَلِتَتَدَبَّرَ ، ولِتَعْتَبِرَ ، وإثارةُ القلوب ؛ لِتُبْصِرَ،ولِتَسْتَيْقِظَ من غَفْوَتِها ، لذلك دار القصـــد البلاغى للاستفهام القرآنى فى إطار البحث حول معانى نفسية- و إن كانت مُنْطَلِقَةً مـــن

أرض العقل والبراهين اليقينية - كان أهمها الدلالة على معـــانى الإنكـــار ، والاســـتنكار ، والتوبيخ ، والتقريع ، والتهكم ، والاستغراب ، والتبكيت ، والتعجب ، والاستبعاد ، والتقرير.

سابعاً : تَوَقَّفَ الباحث عند استفهامات سورة النمل فى الآيات (٥٩ : ٦٦) وبَـــذَلَ محاولة - يرجو أن تكون طيبة - مُجْتَهِدًا ؛ فقد رأى أن كل آية من هذه الآيات قد ختمت بمـا يتناسب مع معنى ومضمون الآية ذاتها ، مُخْتَلِفاً فى الرأى - بذلك - مع بعض العلماء الكبـار (الذين يُقِرُّ لهم الباحث بل غيره أيضا ، بالسَّبْقِ والتَّفَوُّقِ والرِّيَادَةِ) فى قولهم بتفســـير هـــذا الختام على نحو عقلى منطقى ، وإن كان الباحث لا يرفض ذلك التفسير أو ذلك الرأى ، بـــل يرى أن الرأى الأول أولى بالصواب أو هو الأصوب ؛ إذ إنه ثمرة لسياق وملابسات الآيـــة ونابع منها نَصًّا .

ثامنا : وجاء إيثار الأسلوب القرآني لبعض الأساليب البلاغية فى مواضعها من أوجه إعجازه ، فأسلوب النهى - مثلاً- لم يكن لمجرد طلب الكَفِّ عن شىء ، بل كان نهيا مصحوبا بالوعيد والتصوير المُخِيْفِ يصل إلى قلوبهم بِتَلَطُّفٍ ، وما ذاك إلا لعدول القرآن عن توجيـــه النهى مباشرة ، وإنما بتوجيهه أحيانا إلى شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أنـــه الداعي إلى التوحيد ، لِيَتَيَقَّنُوْا أنه إذا كان هذا فى خطاب الله رسوله -صلى الله عليه وسلم- فى التوحيد وهو الداعي إليه . فكيف بهم هم وهم المشركون ؟ ! وما شعورهم إذا علموا أنهم هم المَعْنِيُّون بهذا النهى وليس الرسول _ صلى الله عليه وسلم - ؟

كذلك ، كان أسلوب النفى-على بساطته-بانتهاج القرآن له على نحو معجـــز ، إذ لـــم يأتِ النفى فيه لمجرد النفى ، بل إن الأسلوب القرآني فى نفى الشركاء-أيا كانوا-إنما كان يأتى فى إطاره من السياق مُتَّكِئًا على دليل صحته ، فهو نفى مقرون بدليل دامغ على صحته .

وكذلك ، جاء الأمر مُبْتَغِيًا التهديد والوعيد أحيانا ، وأخرى قاصداً إلى التحدى السافر الْمُنْبِىءِ عن عجز الشركاء التام كما فى قوله تعالى : (**قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**) (سبأ / ٢٧)

تاسعا : وقد كان اعتماد القرآن أسلوب القصر رَغْبَةً فى زيادة التأكيد على وحدانية

الله-تعالىَ والنَّصّ على التوحيد بأسلوب مُوْجَزٍ مُعْجِزٍ ، حيث أوجزت كلمة التوحيد بأسلوب القصر ، وحصرت الألوهية لله وحده ، ونفت غيره من الآلهة المزعومة ، وعَمَّتْ فى النفى باستخدام " المفرد " مع النفى . وغالباً ما كان أسلوب القصر يَرِدُ فى السياق بعد ذكر آيات كونية أو قبل ذكرها .

عاشرا : وإذا أراد القرآن إلزامهم -بعد تقريرهم- آثر أسلوب الشرط المُقْتَرِنَ بالقسم، **(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)** (الزمر / ٣٨) حاملاً إعجاز دائما إذ سيتوجه السؤال إلى المشركين بعد نزول الآيات ، وحتى يوم القيامة؛فلما أَخْبَرَ بإقرارهم الدائم صار ذلك إلزاما لهم وَبَيِّنَةً عليهم ، وذلك من الإعجاز .

أحد عشر : وإذا كان التقرير والاستفهام والنهى والأمر قد لا يأتى بالثمرة المَرْجُوَّةِ من بعض من تَسْتَعْصِى على أفهامهم المعاني العقلية التى تُثْبِتُ وحدانية الله ، وهو غيب ، فإن القرآن يأتى إلى النفوس من كل مَسْلَكٍ ، أو سبيل يمكن أن يؤمنوا به ؛ فضرب لهم المثل؛ ليكون ذَرِيْعَةً إلى عرض معنى التوحيد العقلي المُجَرَّدِ فى صورة حسية تدعو المشرك إلى التأمل والتفكر؛بعد أن تُقَرِّبَ إلى ذهنه المعنى المراد ، ومفارقة المثل عظيمة التأثير على نفس المشرك . إذ دائما ما يستدعى المثل عند القارئ الفَطِنِ الوجهَ المُقَابِلَ للمثل المعروض : فإذا كان المثل فى سورة العنكبوت (الآية ٤١ : ٤٣) قد سيق لتبصير المشركين بهوان أصنامهم وحقارتهم وضعفها البائن الجَلِيِّ ، بما هو مَثَلٌ عند الناس فى الوَهَنِ وضَعْفِ القوة ، وهو نسج العنكبوت ، فإن دقة التصوير فى المثل وتأثيره النفسى يستدعى عند القارئ الفَطِنِ الوجه المقابل أو المُفَارَقَةَ الضِّمْنِيَّةَ - إن جاز التعبير - وهو استدعاء حال المُوَحِّد مع الله الإله الحق الواحد ، وإن كان السياق قد حَثَّ الذِّهْنَ على استدعاء هذه الصور المقابلة بدلالة السياق عليها فى الآية التالية **(خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)** (العنكبوت / ٤٤) فلذلك؛كان ضرب المثل أسلوبا قرآنيا فريدا شديد التأثير على النفوس؛شديد الإقناع لكل ذى لُبٍّ كَيِّسٍ .

ثانى عشر : اتَّضَحَ -يقينا - مدى الغاية التى وصل إليها الأسلوب من إعجاز فى عرض قضية التوحيد من خلال القصص القرآني ؛ باستدعاء طبيعي من الأحداث للتأكيد على الوحدانية ونفى الشركاء . وذلك ما أوضحه الباحث من خلال تحليله لأسلوب عرض

القضية فى إطار عرض قصة يوسف - عليه السلام - إذ كما يخرج النهار من الليل ، يَطْلُعُ علينا يوسف - عليه السلام- بالدعوة إلى التوحيد ، فى حَبْكَةٍ فنية رائعة ، فأشخاص القصة وأحداثها هم الباعثون المُحَرِّكُون له على أن يخبرهم عما يرون فى منامهم ، ولابُدَّ من إيضاح سبب تلك (المَلَكَةِ) التى وَهَبَه الله إياها ، وهى(تأويل الأحاديث) . إنه اتباعه نهج الموحدين من آبائه ، ولأجل أن يستمر امتلاكه لهذه المَلَكَةِ؛فلابُدَّ من إعلان توحيده ، وتَبَرُّئِه مِمَّنْ لا يؤمنون بالله . والقصة القرآنية فى دعوتها إلى التوحيد قد تحققت لها كل مقومات القصة الناجحة ، ورَبَتْ عليها بعرض الفكرة السامية والمثل الأعلى ، والدعوة إلى خَيْرَى الدنيا والآخرة مُسْتَهْدِفَةً العظة والعِبْرَةَ .

ثالث عشر : ولعل الروعة كلَّ الروعة ، والبلاغة المُتَنَاهِيَةَ ، بل الإعجاز قد وضح فى أسلوب التصوير القرآني ؛ لا سِيَّمَا أن الأداة المُصَوِّرَةَ المعاني المختلفة هى (الكلمة)، وهاهو القرآن الكريم قد عرض لنا صورا فنية رائعة لأسمى عنصر فى العقيدة الإسلامية، وهو الدعوة إلى الوحدانية ، وما يَتَّصِلُ بها من هدم الشرك ، كما فى سورة الرعد **(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ)** (الرعد /١٤) ، والحج **(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)** (الحج / ٣١) ، فكثيرا ما نَصَّ القرآن صراحة على أن الأصنام لا تنفع ، ولا تضر ، ولا تملك لعُبَّادِها شيئا فضلاً عن أن تملك لنفسها شيئا ... لكن ، هذا المعنى يَعْرِضُه القرآن فى لوحة تصويرية بالغة الروعة بأسلوب معجز : من تصوير فنى رائع ، وعرض مُشَوِّقٍ ، وتناسق بديع لأجزاء الصورة ، وإخراج لطيف ، حتى كأن الصورة بَارِزَةٌ معروضة أمام أبصارنا مُثِيْرَةٌ كل ما يُمْكِنُ أن يُثَارَ من المشاعر النفسية . ولعلى لا أغالى إذا قلت : إننى أرى صور القرآن مَشَاهِدَ مُجَسَّدَةً متحرِّكَةً كأننى أمام آلة العَرْضِ الحديثة ، بل القرآن عندى أشد تأثيرا؛فآلة العرض معروضها (تمثيل) ، أما القرآن فواقع حَقٌّ مُشَاهَدٌ ملموس، وبأداة مُعْجِزَةٍ هى (الكلمة) ! .

رابع عشر : ولقد عمد القرآن إلى أسلوب الإنذار والتهديد ، إذ من النفوس البشرية نفوس لا ينفع معها تقريب المعنى أو تصويره ، ولا يؤثر فيها سوى التهديد والوعيد، وبخاصة إذا كان هذا التهديد والوعيد صادرا ممن يَقْدِرُ على إنفاذه-كما حدث مع عتبة بن ربيعة -

فجاء أسلوب الإنذار فى القرآن صريحا أحيانا ، وأحيانا أخرى أتى بأساليب متنوّعة تهدف إلى التهديد والوعيد ، وكانت لغة الخطاب - كما لوحظ- للجمع أحيانا ، وللمفرد أحيانا أخرى، وإن كان خطاب الجمع أكثر ؛ فلعل هذا يوحي بمراعاة الخطاب القرآني لمقتضيات التعبير عن المواقف ؛ فلقد كان الشرك اتجاها عاما للجماعة المشركة تقليدا واتباعا . وربما وصل الفرد فى تلك الجماعة المُشْرِكَةِ إلى حَدٍّ صار به من رءوس الشرك كأبى جهل -مثلا- أو أن يكون ذلك الفرد أنموذجا فى الكفر والشرك ، فَيُتَّجَهُ الخطاب إليه حينئذ بصيغة المفرد .

ولعل ذلك تنويع للخطاب ؛ لِيَتَعَقَّبَ المشركين جماعاتٍ وأفرادا بالإنذار والتهديد والوعيد والترويع والتخويف ، فيعيش المشرك فى حالة مشحونة بالقلق والتوتر الناتج عن هذا التهديد والوعيد لا يلبث معها -إذا كان لديه بقية من عقل- إلا أن يفئ إلى خالقه الواحد الأحد .

خامس عشر : ومن البشر أناس طُبِعُوا على الجدل والمِرَاءِ والمحاجة ؛ لذا يخاطبهم القرآن بصوت الحق والدليل والبرهان والحجة القارعة ، داعيا إياهم أن يُعْمِلُوا عقولهم . حتى إذا فتحوا أعينهم وآذانهم وأَعْمَلُوا عقولهم ألزمهم بالحجة والبرهان (على ما فَصَّله الباحث فى معالجته لأسلوب الإلزام بالحجة) ولم يُرَ أحد ، ولن يُرَى أحد أنصف عَدُوَّهُ من نفسه بحكاية رأيه ، بكل أمانة ، حتى ولو كان ذلك الرأى المَحْكِىّ عن الخصم مثيرا للجدل ومستميلا لضعاف النفوس وأصحاب الأقدام الواهية فى أرض الإيمان ، والقلوب المُزَعْزَعَةِ مثلما فعل الحق -جل وعلا- فى حكايته لقول المشركين **(وَقَالَ الَّذِيْنَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُوْنِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُوْنِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِم فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِيْنُ)** (النحل/ ٣٥) و **(سَيَقُولُ الَّذِيْنَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوْا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوْهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨)قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ)**(الأنعام/ ١٤٨ - ١٤٩).

سادس عشر : وإذا لم يُجْدِ أسلوب الإنذار والتهديد ، وأسلوب إلزام الخصم بالحجة ؛ فلا مَنَاصَ من أسلوب المواجهة والتحدى الصريح ، فمادام المشركون يجادلون ، ولا يرتدعون؛ فلا بُدَّ من أن يُخْتَمَ على الأفواه ، وتُصَكَّ الآذان ، وتُبْهَتَ العقول والألسن ؛ بأمر

الخلق الذى لا يَجْرُؤ أحد من المشركين أن يَدَّعِى أن شركاءهم خلقوا شيئا أى شىء ... وكثيرا ما آثر القرآن فى المواجهة والتحدى للمشركين أسلوب الاستفهام ؛ لما له من قدرة على إثارة التفكير ... وفى نهاية التحدى والمواجهة ، تبرز حقيقة التوحيد مُتَّسِقَةً مع شهادة الكون وشهادة العقل والنظر السديد .

سابع عشر : وحينما تَتَبَلَّدُ المشاعر والأحاسيس ، ويبلغ العناد والإصرار على الشرك مداه ، يعالج القرآن نفوس المشركين وغيرهم بأسلوبه المعجز فى عرض المشاهد الأخروية شَاخِصَةً حاضرة مُجَسَّدَةً ، أمام أعينهم ، نافذة بذلك إلى الحس والوجدان ، مُثِيْرَةً الانفعالاتِ الوجدانيةَ فى نفوس المشركين . تلك الإثارة التى لا يستطيعون معها صَرْفًا ولا تَحْوِيْلًا " لِفَرْطِ الحيوية فى هذا العَرْض ، وتَجْسِيْمِ القرآن لتلك المشاهد حتى لَتَتَحَوَّلُ فى الحس إلى مَشْهَدٍ حاضر ، يعيشه الإنسان بالفعل ، وتصبح الدنيا بكل ما فيها من واقعية الحاضر كأنها ماضٍ كان وانتهى ، ولم يَعُدْ له وجود ، ولا يملك الإنسان ذو الإحساس العادى فضلاً عن الإحساس المُتَفَتِّحِ أن يَمُرَّ بهذه المشاهد دون أن ينفعل بها وجدانه وتتأثر بها مشاعره " (١)

ومن إعجاز الأسلوب القرآني هنا قدرته على عرض القضية من خلال الأزمنة المتداخلة ، وهذا ما وضح فى معالجة مبحث أسلوب عرض المشاهد الأخروية ؛ حيث كان المشهد ينطلق غالبا من أرض الواقع (آيات الله فى الكون) إلى المستقبل (يوم القيامة ومشاهده) وربما عاد إلى اللحظة الحاضرة فى سرعة خاطفة ، لا تحس معها بفوارق الزمن الشاسعة ، على عادة القرآن فى هَزِّ أوتار القلوب فى اللحظة المناسبة .

ثامن عشر : وكان الأسلوب القصصى الأسلوب المُفَضَّلَ الذى عرض من خلاله القرآن قضية التوحيد فى خطابه عباد النجوم والشمس والقمر والكواكب ؛ فقد عُرِضَتْ القضية فى إطار قصة إبراهيم -عليه السلام- مع قومه ، وكذلك قصة سليمان - عليه السلام - مع الهدهد ، ليكون ذلك فى النهاية رمزا لحال الرسول -صلى الله عليه وسلم - مع قومه فى دعوتهم إلى التوحيد ، ومعادلا موضوعيا لتلك الحال . وكان أسلوب القصة قائما على طريقة الاستدراج أو أسلوب الاستدراج .

---

(١) دراسات قرآنية ، محمد قطب ، صـ٤٩٥ ، طبع دار الشروق .

أما عبدة الجن والملائكة ؛ فقد كان الأسلوب المُخْتَارُ فى خطابهم هو عرض حالهم يوم القيامة فى مشاهدَ مُصَوَّرَةٍ مآلهم ، مُتَرَاوِحَةٍ بين السخرية وإهمال ذكرهم ، وبين إقرار ما سيحدث للجن يوم القيامة وتَبَرُّؤِ الملائكة منهم ، وبين التهديد والوعيد بمصيرهم المحتوم .

تاسع عشر : كذلك ، كان أسلوب الاستدراج أو إيهام الخصم بالقدرة على المحاجة هو الأسلوب الأثير للقرآن فى خطابه مُدَّعِى الألوهية على عهد إبراهيم -عليه السلام- فى حوار حَيٍّ مُتَنَامٍ . هذا الحوار الحي المتنامى هو الطريقة أو الأسلوب الذى عَرَضَ به القرآن لمدعى الألوهية على عهد موسى -عليه السلام- بأساليبَ مُتَنَوِّعَةٍ . مُرَكِّزًا فى ادعائه الألوهية على سور ثلاثة هى الشعراء والقصص والعنكبوت ، وهى سور مكية ، ولعل ذلك كان أيضا - رمزا ومعادلا لحال الرسول -صلى الله عليه وسلم - مع قومه وتعريضا بهم ؛ فكأن القرآن "يُعَرِّضُ" بالمشركين ، بغبائهم ؛ إذ هذا حال رجل أعتى منكم وأشد بطشا منكم . ثم ماذا كانت نهايته ؟ ! فهل من معتبر ؟ ! .

عشرين : والأسلوب القرآني فى خطابه أهل الكتاب : اليهود والنصارى قد قرنهم بالمشركين ، فجاء الخطاب عاما شاملاً لهم وللمشركين فى بعض الآيات (كما فى آيات المستوى الأول من الفصل الرابع) ، ولعل هذا كان مُؤَشِّرًا أسلوبيا يشير إلى كل مَنْ هو مُقْتَنِعٌ بآرائهم ، وتَنَوَّعَ الأسلوب القرآني فى هذا تَنَوُّعًا كبيراً ، وضح فيه الدقة والإعجاز سواء فى اختيار الكلمة المفردة أو على مستوى التركيب ، كما وضح فيه القدرة المطلقة على التأثير العقلي والنفسي فى الخطاب من خلال أسلوب القرآن فى الإقناع والتأثير . كما بدا فى قوله تعالى **(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)**(الزمر / ٤) أو فى قوله تعالى فى الآيات **(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا)** (مريم / ٨٨ : ٩٥) .

كما جاء الخطاب مُخَصِّصاً اليهود والنصارى مُصَرِّحًا بنسبتهم الولد لله للتشنيع عليهم، والتعريض بغبائهم وركاكة عقولهم فى أسلوب تقريرى ، ينعى عليهم فَعْلَتِهِمْ الشنعاء وأقوالهم التى أتت خَبْطَ عَشْوَاءَ .

أما النصارى فقد خصهم النظم القرآني بآيات كريمة أغلبها آيات مدنية ، وذلك؛لأن الإسلام بعقيدة التوحيد كان قد أوشكت قواعده على الاستقرار ، ولم يبق أمامه بعد دحر المشركين واليهود إلا أن يواجه أكبر القوى المناوئة للتوحيد وهم النصارى ممثّلين فى دولة الروم ، فكان عليه أن يُفَنِّدَ مَزَاعِمَهُمْ ؛ لإبطالها أولاً ، ثم لترسيخ عقيدة التوحيد فى النفوس ثانية . وقد تنوع الأسلوب القرآني فى خطاب النصارى - كذلك - بين الخبر والاستفهام والنهى والقصر والشرط . سالكا معهم كل طريق يمكن أن يؤثر فيهم ، ويعيد عقولهم الى جادة الصواب .

واحدا وعشرين : انتهى الباحث إلى أن القرآن **"لايحتكم"** إلى العقل فى مسألة الإيمان بالإله الواحد ؛ فالقرآن يدعو العقل إلى التفكير السليم،ويهديه،ويرشده فى كل ما هو غيب ، وإن خالف الباحث فى ذلك بعض كبار أساتذته العلماء كالعقاد ، وكالدكتور شوقى ضيف فى قوله " وكما جعل الله العقل حكماً فى الإيمان به وفى الدعوة إلى الإسلام جعله حكما فى الشريعة الإسلامية"(١)

والباحث يَتَّفِقُ فى رأيه هذا مع رأى جماعة من كبار العلماء ، أبرزهم الأستاذ الشيخ الدكتور / عبد الحليم محمود . شيخ الأزهر الأسبق فى كتابه " الإسلام والعقل " والإمام أبو حامد الغزالى فى كتابه الشهير " تهافت الفلاسفة " .

وقد تنوع الأسلوب القرآني فى الدعوة إلى إعمال العقل ، ما بين الخبر والإنشاء مُوَجِّهًا النظر دائماً إلى ضرورة التَّأَمُّلِ والتَّدَبُّرِ فى الآيات الكونية أو آيات القدرة فى النفس والخلق ، التى تدل جميعها بآثارها على موجدها وخالقها ، وذلك منهج قرآنى يعتمد على لَفْتِ نظر الإنسان إلى الآيات والدلائل التى يراها هو نفسه ويَقَعُ عليها بصره كل يوم -وإن مَرَّ

---

(١) انظر : عالمية الإسلام ، د/ شوقى ضيف ، الطبعة الثانية ، صـ٤٨ - ٤٩ ، صدر عن مكتبة الأسرة ، طبع دار المعارف ٢٠٠٠ .

عليها دون التفات إليها – : فى السماء ، وفى الأرض ، وما بينهما ، وفى النبات ، وفى الجبال ، وفى الجمال، وفى النفس . وغير ذلك مما ينضوى تحت قوله تعالى : (**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**) (فصلت/٥٣) .

وكان أسلوب الاستفهام أكثر الأساليب التى ركَّز عليها القرآن فى إثارتهم نحو التفكير والتدبر ؛ إذ الاستفهام حمل من المعاني الضمنية الإشارية – بالإضافة إلى ما به من مضمون –أكثر مما يحمله أسلوب آخر ؛ فللاستفهام معنى عزيز لايدرك إلا من خلال السياق ، لا يدركه إلا ذو الذوق الرفيع ، ولعل من أوجه إعجاز القرآن أن البشر على اختلاف طبائعهم ودرجاتهم العقلية فى التفكير ، ابتداء من أقل البشر تفكيرا إلى أرسخهم فى العلم ، يجدون فى القرآن ما يُثِيرُ عقولَهم إلى أن تُعْمِلَ آلة التفكير المُعَطَّلَةَ ، ويَحْفِزُهُمْ إلى الإيمان . يستوى فى ذلك البَدَوِىُّ والقَرَوِىُّ ، والأُمِّىُّ والفَلَكِىُّ ، والجاهل والعالم ... إن القرآن يَتَطَلَّبُ من البشر فقط أن يفتحوا آذانهم للحق ، وأبصارهم للنظر والتدبر والاعتبار ، وعقولهم إلى المُقَارَنَةِ والاختبار ، وقلوبَهم للإيمان بالحق أيا كان بلا استكبار . لكن كل آلة أو حاسة من تلك الحواس يصيبها من الأدران ما يصرفها عن الحق !

ثانيا وعشرين : وإذا كان القرآن قد سلك فى بناء عقيدة التوحيد طريق حث العقل على التفكير السديد ؛ فإنه كذلك اتَّخَذَ أسلوبا آخر ، هو دعوته إلى العِظَة والعِبْرَةِ ؛ فَقَدَّمَ نماذج -ممن سبق- من المشركين مع أنبياء الله ، وكيف كانت نهايتهم ؟ فجاء الأسلوب داعيا إلى الاعتبار صراحة إما تعقيبا على القصص القرآني ، أو تعقيبا على واقع المشركين مع الرسول -صلى الله عليه وسلم - كما فى(الآية/ ٦ / الأنعام) أو أثناء سرد أحداث القصة القرآنية كما فى (الآيات/ ٤٣ : ٤٥ / القمر) . وربما كان تمهيدا لعرض القصص القرآنى مُتَّكِئًا على مشاهد مستقبلية كما فى الآيتين (٢١ : ٢٢ / غافر)

وجاء الخطاب فى الدعوة إلى الاعتبار بمن سبق مباشرا (بضمير الخطاب) لمشركى مكة ، لِلَفْتِ النظر وتوجيهه إلى مواضع العِبْرة سواء بأسلوب الأمر أو بأسلوب الاستفهام . كما جاء الخطاب بضمير الغيبة عنهم ، بالرغم من أن مشركى مكة كانوا هم المَعْنِيِّينَ ، ولعل ذلك ؛ لإشراك المتلقى للقرآن غيرهم أو مَنْ بعدهم فى القضية المُثَارَةِ ؛

ليكون للمتلقى أيا كان انتماؤه رَأْيٌ ودور فى هذه القضية ، فإن كان المتلقـــى مُؤْمِنـًا ازداد إيمانه ، وإن كان غير ذلك دَعَتْهُ الحال إلى التدبر والاعتبار .

ثالثا وعشرين : إن من أوجه إعجاز القرآن تكـــرار القصـــص القرآنـــى،أو لنقـــل تصريف القصص القرآني ؛ فهو يُعْرَضُ فى مَوَاضِعَ مُخْتَلِفَةٍ ، وبطـــرق مختلفـــة ، وبِقَـــدْرٍ مختلف، وبزاويا عَرْض مختلفة ، فيزيد هنا حَلَقَةً أو يَنْتَقِصُ هنـــاك ، ويفصّـــل هنـــاك ، أو يوجز، أو يشير ، أو يجمل بأسلوب حكيم فريد لمعاني وأحداث حقيقية .... حسب ما يقتضيـــه السياق ، وربما عرضت السورة الواحدة لقصة واحدة ، بأساليبَ متنوعة معجزة ، كما أوضح الباحث فى تحليله لأسلوب سورة نوح - عليه السلام - التى يرجـــح البـــاحث اختصاصـــها بعرضها الحلقة قبل الأخيرة من بعثة نوح إلى قومه ؛ حيث لم تُصَوِّرْ لنـــا الســـورة مشـــهد الإغراق وما تَبِعَه،الذى صورته الآيات (٤٠ : ٤٨) من سورة هود،وهو ما يُؤَكِّدُ الإعجـــاز فى تصريف القصص القرآني - لم تصوره ، بل أشارت إليه على وجه الإجمال فـــى قولـــه تعالى (**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا**)(نوح/٢٥) .

رابعا عشرين : اجتهد الباحث فى بيان الإعجاز الأسلوبي لسورة الإخلاص ، وكيـــف أنها على إيجازها الشديد قد أوضحت وأعلنت التصور الإسلامي الصحيح لعقيدة التوحيـــد ، علـــى نحو يستطيع معه كل أحد أن يدركه ، ويستوعبه بدون جَهْدٍ ، أو كَدٍّ فى الذِّهْنِ مُشْتَمِلَةً -على إيجازها- على براهينَ الحق،وأدلَّةِ الصِّدْقِ ؛ مما جعلها تَعْدِلُ ثلث القرآن -كما أخـــبر المعصوم -صلى الله عليه وسلم - بل كانت سببا فى إسلام كثير من العلماء و القساوسة .

خامسا وعشرين : إن كُلَّ ما سبق إنما كان محاولة اجتهاد جادة من الباحث ، يدعو الله أن تكون مُوَفَّقَةً ، ولعل أهم ثمرة لهذا البحث أنه حمل الباحث على أن يكون كالنَّحْلَةِ فـــى البستان ، أو كالغَوَّاصِ فى القيعان .

اقْـــتِرَاحٌ

يَعِنُّ للباحث -بعد هذه الرحلة فى رياض القرآن النَّدِيَّةِ- أن يقـــترح علـــى إخوانـــه الباحثين بعض الاقتراحات التى يدعو الله أن يُوَفِّقَه إليها ، أو من شاء من المُخْلِصِيْنَ من خُدَّامِ كتاب الله الكريم :

الاقتراح الأول : عما يمكن أن يُسَمَّى "بالتَّنَوُّعِ الأسلوبي" أو "الثَّرَاءِ الأسلوبي" لآيات القـــرآن الكريم ، فقد لاحظ الباحث أن بعض الآيات قد تحتوى على عديد من الأساليب المختلفة فـــى تناسق بديع معجز ، يكاد لا يُحِسُّ به إلا ذو الذَّوْقِ السَّلِيْمِ ، فلعل هذه الظاهرة الأسـلوبية لآى القرآن تجد من المخلِصين من يُوْرِقُ لنا أشجارها ، ويُطْعِمُنَا من ثمارها ، وَيَنْشُرُ علينا مـــن شذاها.

الاقتراح الثانى : خاص بظاهرة قديمة معلومة ، هى ظاهرة تكرار القصص القرآني ،ومـــا يقترحه الباحث هو تَرْكُ استخدامِ الباحثينَ مُصْطَلَحَ (التِّكْرَارِ) ، وإيثار اســتخدام مصطلـــح "تصريف القصص القرآني" ؛ إذ فى التَّصْرِيْفِ دلالة على التعبير عن القصة الواحدة بِطُـــرُقٍ مُخْتَلِفَةٍ،مما يُعْفِى الباحثين من التنبيه الدائم على أن التكرار فى القرآن لم يكن مذموما ، وإنما كان محمودا بديعا ، ثم يأخذون فى بيان وجوه الدفاع عن ظاهرة التكرار ، التى تلتقى أغلبها فى قدرة النظم الشريف على التصريف فى التعبير عن قصص القرآن .

وقد أشار إلى ذلك الرُّمَّانِيُّ فى رسالته عن إعجاز القرآن . فى قوله : "وأَمَّا تَصْرِيفُ المعنى فى الدلالات المختلفة؛فقد جاء فى غير قصة ، منها قصة موسى -عليـــه الســـلام - ذُكِرَتْ فى سورة الأعراف ،وفى طه ، والشعراء ... وغيرها لوجوه مـــن الحكمـــة ، منـــها التَّصَرُّفُ فى البلاغة من غير نقصان عن أعلى مَرْتَبَةٍ ، ومنها تمكينُ العِبْرَةِ والموعظـــة ، ومنها جَلَّ الشُّبْهَةِ فى المُعْجِزَةِ"(١) كذلك فإن مصطلح " التكرار " ليس فيه -فـــى ذاتـــه- أى دلالة حميدة سوى أنه يدل على التكرار والمعاودة للشيء ؛ لذا نَطْمَحُ أن يأخذ الباحثون بـــهذا الاقتراح . لاسيما أن القرآن نفسه آثر التعبير بالمادة اللغوية التى تشوم سوى الصلح، بل لفت النظر اليه ثلاث مرات فى سورة واحدة ، هى الأنعام؟ فى قوله (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) (٤٦) ، وقوله (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (٦٥) ، وقوله (وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)(١٠٥) .

(١) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ، للرمانى والخطابى ، وعبد القاهر الجرجانى ، صـــ ٩٣ - ٩٤ .